

ذكر المرأة في حكايات العرب عن مصر

الرحم والشرع والتاريخ

هند مصطفى*

الشمول والتفصيل وتحري الدقة لاسيما وأن ابن الحكم هو في الأصل مُحدّث يتحرى تتبع الرواية بأسانيدھا.

أما الكتاب الثاني "الخطط" فيعتبر الأكبر في جمع أخبار مصر وأحوال سكانها وأقاليمها، وفيه يرصد المقرئ الظاهرة العمرانية وتجليتها الاجتماعية، بحيث يتخذ من الأثر أو المكان مفتاحاً للحكي التاريخي والاجتماعي.

فإن كان المؤلف الأول هو أقدم ما وصلنا في التأريخ لمصر الإسلامية، فإن المقرئ، وإن لم يكن آخر من كتب، فهو يقدم بخطه موسوعة شاملة من منظور المكان والزمان.

وعند ابن الحكم تأتى الحكايات ضمن نسيج استهلاكي، يتضمن فضائل مصر وموقعها بين الدول ثم تاريخها عبر سلسلة من الحوادث المرتبطة بعهود الأنبياء المتواليّة، بدءاً بنوح فأبراهيم فيوسف فموسى، وحتى ظهور الروم وفارس على مصر.

وداخل هذا النسيج تظهر المرأة على أكثر من مستوى، وتصير محورا لعدد من المرويّات المهمة التي لبعضها أصل في الواقع في حين لم تثبت صحة بعضها الآخر.

والروايات ذاتها تتكرر عند المقرئ ولكن عبر خرائطه العمرانية الممتدة في مؤلفه الكبير

ارتبطت مصر في المخيلة العربية إبان الفتح الإسلامي لها وبعده بعدد من الأخبار والحكايات، التي تروي أحداثاً من تاريخ مصر قبل الفتح، وقد تم استنباطها أو تخيلها من القصص الديني ومن القاصين ناقلي الأخبار، ومن ثم فلبعض الحكايات أصل ثابت، وبعضها أسطوري بالجملة، وبعضها يختلط فيه الأصل بالأسطورة وهو الغالب.

وقد ظلت هذه الحكايات والمرويّات تغذي الكتابات التي تتناول مصر حتى كتابات عصر متأخر مثل كتابات السيوطي^١ (ت ٩١١هـ) وابن إياس^٢ (ت ٩٣٠هـ).

ويمكننا رصد هذه المرويّات في مؤلّفين من المؤلفات الأشهر في هذا المقام هما كتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم^٣ (ت ٢٥٧هـ) "فتوح مصر والمغرب"، وهو من بواكير الكتب التي تحدّثت عن مصر عقب الفتح، ومؤلف المقرئ^٤ (ت ٨٤٥هـ) الأشهر "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار". وتعود أهمية هذين المؤلفين بصفة خاصة إلى أن الأول، والذي يؤرخ لوقائع الفتح وترسيخ الحكم العربي بقيادة عمرو بن العاص في مصر بمختلف أقاليمها فضلاً عن بيانه لعمارات العرب وخططهم في أنحاء مصر، يعد أقدم وأهم المصادر العربية في هذا الصدد من حيث

* باحثة في العلوم السياسية ودراسات المرأة، تعد لدرجة الماجستير في العلوم السياسية. ©جمعية دراسات المرأة والحضارة، القاهرة، عدد ٢٥، ربيع أول ١٤٢٢هـ - يونيو ٢٠٠١م.

خرج من مصر ولحق بنوح عليه السلام وآمن به وأهله وولده وتلامذته وركب معه في السفينة وزوج ابنته من بنصر بن حام بن نوح، فلما خرج نوح من السفينة وقسم الأرض بين أولاده وكانت ابنة قليمون قد ولدت لبنصر ولداً سماه مصرام فقال قليمون ابعث معي يا نبي الله ابني حتى أمضي به إلى بلدي... ويقال إن مصرام نكح امرأة من الكهنة فولدت له ولداً فسماه قبطيم ونكح قبطيم بعد سبعين سنة من عمره امرأة ولدت له أربعة نفر..^٦ ويبرز ذكر المرأة في هذه الرواية التي ينقلها المقرئ في أكثر من موضع من خطه، ففيها كانت الأرض التي سميت بمصر هي وطن الزوجة ابنة الكاهن المصري الذي آمن مع نوح، وسميت مصر باسم ابنها مصرام ابن بنصر الذي تزوج بدوره امرأة أخرى من مصر ولدت له أولاده الأربعة الذي سميت أقاليم مصر بأسمائهم في الصعيد والشمال. والجزء المتعلق بالأولاد الأربعة يتكرر في الرواية التي يرويها ابن الحكم عن تسمية مصر والتي تختلف في بدايتها عن المذكورة. والأولاد الأربعة هم فقط وأشمون وأتريب وصا، ويتابع المؤرخون أحفاد صا باعتبارهم ملوك مصر الأوائل.

وربما نلمح هنا إرهاصة باكرة لصلة الرحم التي ربطت بين أحفاد نوح وأهل أرض مصر، من خلال الزيجات الثلاث المشار إليها في الرواية.

بحيث تأتي الحكاية ضمن وصفه للخطط والآثار.

وتبرز متابعة هذه المروييات - حقيقتها وزائفها - أمرين؛ أولاً: المكانة التي احتلتها المرأة عند الرواة في عملية التأريخ ذاتها، بعبارة أخرى مدى اعتناء المؤرخين المسلمين بالتأريخ للمرأة ونقل أخبارها. وكذلك نهج المؤرخين في الحكى عن المرأة وأي صورة يرسمونها لها، وأي امرأة يتحدثون عنها، وأي مواقف يوضعون فيها المرأة من حيث السلبية والإيجابية.

وثانياً: الوضعية الخاصة التي تحتلها المرأة في مصر ومدى إلهامها للمؤرخين، وكذا مدى التأثير الذي تخلفه المروييات المنقولة عن المرأة المصرية على صورتها في الواقع ومدى الارتباط بين الصورتين.

ويكشف العرض لسيرة المرأة في تاريخ مصر كما خطه ونقله المؤرخون المسلمون، عن وجود خط واصل بعينه، هو الخط الذي ولدته ووصلته "الرحم"، الرحم التي ربطت مصر بالعرب منذ أن تزوج نبي الله إبراهيم بالسيدة هاجر، وجعلت المصريين "أخوالاً للعرب في المفهوم الشعبي.

المصرية في التاريخ القديم:

يتكرر ذكر المرأة في التاريخ العربي لمصر منذ عصورها الأولى، ففي إحدى روايات المقرئ في أصل تسمية "مصر" يقول: "سميت مصر بعد الطوفان بمصر بن بنصر بن حام بن نوح؛ ذلك أن قليمون الكاهن

ملكات مصر :

وعندما يتابع المؤرخون سير الأجيال التالية من الأبناء والأحفاد الذين تولوا ملك مصر، تبرز سير الملكات النساء التي تحتل مكاناً كبيراً في الخطط المقريرية، إذ تمتد في كثير من المواضع في متن المؤلف الذي يتعرض بالتأريخ لأقاليم مصر وآثارها المختلفة، حيث يصبح الأثر أو المكان هو المفتاح لذكر سيرة صاحب الأثر أو المقيم فيه.

الملكة جورياق :

ويقال جوريا، (ويسمى ابن الحكم خروبا) ويشير المؤرخون إلى أنها ابنة طوطيس بن ماليا الذي هو فرعون إبراهيم^٦. وعن هذه الملكة يسهب المقريري في الحديث في أكثر من مناسبة، فعند تعرضه لذكر الخلدجان، وخليج مصر بصفة خاصة، يبدأ في قص رواية طوطيس بن ماليا مع سارة، فيقول أن الملك بعدما عرف مقدار سارة دفع بها إلى ابنته جوريا وكانت من الكمال والعقل. بمكان كبير، وألقى الله تعالى محبة سارة في قلبها فأحسن ضيافتها ووهبت لها هاجر. وفيما كان طوطيس الملك -أول فراغنة مصر- قاتلاً جباراً "أكثر من القتل حتى قتل قراباته وأهل بيته..". كانت جوريا "حكيمه عاقلة تأخذ على يده وتمنعه من سفك الدماء..". وعندما تفاقم أمره "سمته وهلك"^٧. وتولت الأمر، "فوعدت الناس بالإحسان والبر وجمعت الأموال وقدمت الكهنة ورؤساء السحرة ورفعت أقدارهم"^٨.

ولا ينتهي الأمر عند هذا بل إن جورياق تدخل في مواجهات وحروب مع أعداء لها، هم من لم يرضوا بحكمها وفروا إلى أتريب وولوا آخر يقال له "ايداحس" الذي استغاث بملك الكنعانيين فجهزه بجيش عظيم. وترد هذه الحكاية في ذكر بناء الإسكندرية. يقول المقريري أن جوريا عندما علمت بما كان من أمر "ايداحس" فرقت الأموال وقوت السحرة، وبعثت بامرأة من أتباعها إلى ملك كنعان تنقل إليه رغبتها في الزواج منه وتسليمه ملك مصر إن هو قتل ايداحس، ففرح الملك بالعرض وقتل ايداحس، فبعثت إليه قائلة "لا أتزوجك حتى يظهر قومك في بلدي وتبني لي مدينة عجيبة" في غرب مصر كي تتوجه فيها بعيداً عن عشيرتها، بل وأمرته أن يبنها على غرار العمارة الموجودة بالبلاد، ففعل وكانت تلك مدينة الإسكندرية، وأمرته أن يصلح أطلال مدينة أخرى ففعل وكانت الإسكندرية الثانية، فلما فرغ دعاها إليه فأرسلت إليه هدية وقالت : "اقسم جيشك ثلاثاً فانفذ إلي ثلثه حتى إذا بلغت ثلث الطريق فانفذ الثلث الآخر، فإذا جرت نصف الطريق فانفذ الثلث الباقي ليكونوا من ورائي لثلاثي يراي أحد إذا دخلت عليك ولا يكون عندك إلا صبية تشق بهم"، وسارت إليه بجهازها فلما قابلت ثلث الجيش الأول قدمت إليهم شراً وطعاماً مسموماً فهلكوا وكذلك فعلت مع الثلثين الآخرين ودخلت مع تابعاتها وجواربها يبعين قتله

سياسي- لا يملك من أدوات القوة سوى أدوات النساء ذاتها.

دولة النساء :

فيما أرهصت حكاية الملكة جورياق لفكرة "دولة النساء" التي تحكمها امرأة بطانة من النساء بل وتستخلف امرأة أيضاً، يكرس المؤرخون الفكرة نفسها بحكاية أخرى عن نساء مصر.

والحكاية تقول إن نساء أهل مصر حين غرق منهم من غرق مع فرعون ولم يبق إلا العبيد والأجراء، لم يصبروا عن الرجال؛ فطفقت المرأة تعتق عبدها وتزوجها، وتتزوج الأخرى أجريها وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنها، فأجابوهن إلى ذلك فكان أمر النساء على الرجال، ويضيف المقرئ بن أبي حبيب: "أن نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعاً لما مضى؛ لا يبيع أحدهم ولا يشتري إلا قال أستمأمر امرأتى".

وفي رواية أخرى، يقول المقرئ إن فرعون لما غرق ومعه أشرف مصر لم يبق من الرجال من يصلح للمملكة فعد الناس في مراتبهم بنت الملك ملكة، وبنت الوزير وزيرة، وبنت الوالي وبنت الحاكم على هذا الحكم، وكذلك بنات القواد والأجناد، فاستولت النساء على المملكة مدة سنين وتزوجن العبيد واشترطن عليهم أن الحكم والتصرف لهن، فاستمر ذلك مدة من الزمان ولهذا صارت ألوان أهل مصر سمراً من أجل

فارتعد وقال: "من ظن أنه يغلب النساء فقد كذبت نفسه وغلبته النساء"، وقتلته وحولت أمواله إلى مدينة منف وبنيت منارا بالإسكندرية، وهابها الملوك جميعاً.

والغريب هنا أن المقرئ ينسب إلى جوريا بناء منار الإسكندرية، بل والإسكندرية ذاتها التي بنيت برغبتها وعلى الوجه الذي أرادت، وهو يجعل بطانتها وحاشيتها جميعاً من النساء، فمنهن من كانت رسولاً ومنهن من قامت بقتل الملك وقطع عروقه. وكان طبيعياً والحال كهذا في دولة من النساء أن تقول الروايات أن جوريا استخلفت ابنة عمها زالفا ابنة ماموم بن ماليا لتكون ملكة بعدها على البلاد. وتوصف زالفا بأنها عمرت دهرًا طويلاً وأن عشيرتها كثرت ونمت، حتى طمع فيهم العمالقة بقيادة الوليد بن دومغ (وهو والد فرعون يوسف حسبما يقول الرواة) وينقل المقرئ حديث الحرب التي دارت بين زلفي والعمالقة حتى أيقنت زلفي من هزيمتها فسمت نفسها.^{١٠}

ومكيدة جوريا في هذا السياق لها دلالة في رصد صورة الدور التاريخي/السياسي للمرأة كما ينقله الرواة، فالمرأة حين تتلامس مع التاريخ، فإنما يكون ذلك بأدواتها الخاصة من خلال علاقة زواج أو عشق أو تدير كيدي، وهي الأدوات التي يتصورها المؤرخ لها اتفاقاً مع قناعاته حول عجز النساء وكوفهن -حتى وإن صرن ملكات ذوات نفوذ

وبنت جداراً أحاطت به على جميع أرض مصر، وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومساح. ويمضي ابن الحكم في وصف البناء الذي أقامته دلوكة ووسائل تحصينه. وهو البناء المشهور في كتب التاريخ بحائط العجوز.

ولأن دلوكة من قوم سحر وسحرة، فكان طبيعياً أن تنشأ العون من السحرة، أو الساحرات بالأحرى، فيمضي ابن الحكم موضحاً أنه كان ثمة عجوز ساحرة يقال لها ندورة وكانت السحرة تعظمها وتقدمها، فبعثت إليها دلوكة طالبة منها أن تصنع شيئاً لحماية أرض مصر. فعملت الساحرة بربا (معبد) من الحجارة في وسط مدينة منف، وجعلت له أربعة أبواب كل باب منها إلى جهة. وصورت فيها صور الخيل والبغال والحمير والسفن والرجال^{١٣}.. ومن شأن هذه البربا أن تُهلك كل من يأتيها من أية جهة، فما كان على المصريين إلا أن يؤذوا الصور على جهة البربا الموافقة للجهة التي أتت منها جيوش الأعداء فيصيب الجيوش التي تهاجمهم ذلك الأذى. ويصف المقريري ملك دلوكة فيقول "فهاجم الملوك والأمم، ومنعوا ناحيتهم من عدوهم، واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز واتقاهن لزم أقطار المملكة وأحكامها السياسية"^{١٤}. والاستعانة بالسحر هنا تأتي لتأكيد فكرة معينة حول أن المرأة/الملكة تتغلب على الرجال بوسائل النساء أي بالكيد والسحر بصفتها عاجزة عن

أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط واستولدوهن.^{١١}

الملكة دلوكة :

وحديث نساء مصر بعد غرق الرجال يذكره المقريري في أكثر من موضع بمؤلفه، أما ابن الحكم فيورده في مكانه ضمن ترتيبه التاريخي، ويذكر أن نساء مصر أجمعن على أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة ابنة زباء.

وذكر الملكة دلوكة يتكرر في معظم كتب التاريخ، حتى أن ابن جبير يذكرها في رحلته لدى مروره بمصر^{١٢} بل تقول الحكايات أنها ثاني من قام بقياس النيل بعد يوسف عليه السلام.

حيث وضعت له مقياساً في أنصنا، وهي بلدة بصعيد مصر قبالة ملوي حالياً، ويقال أن منها جلب فرعون سحرة موسى عليه السلام، ويقال إن مارية القبطية من قرية من قرأها تدعى حفن.

ويصف ابن الحكم دلوكة بأنها كانت ذات عقل ومعرفة وتجارب وكانت في شرف بين النساء وحكمت وهي بنت مائة وستين سنة. ويقول أنها خافت أن يتناولها ملوك الأرض فجمعت نساء الأشراف، وقالت لهن : "إن بلادنا لم يكن فيها مطمع لأحد، ولا يمد عينه إليها، وقد هلك أكابرنا وأشرفنا وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم، وقد رأيت أن أبني حصناً أحرق به جميع بلادنا، فأضع عليه المحارس من كل ناحية، فإنه لا نأمن أن يطمع الناس فينا".

وسيرة دلوكة من السير الغنية في كتب التاريخ المعنية بمصر، فدلوكة هي الحكيمة التي حافظت على الدولة بعد ذهاب الرجال، وهي صاحبة الحائط الذي سمي بحائط العجوز والممتد من العريش إلى أسوان محيطاً بأرض مصر شرقاً وغرباً. وإذا كانت حكاية دلوكة تغيب في كتب التاريخ الحديثة مثل جورباق، فإن الكتب تتحدث عن آثار "حائط العجوز" الذي كان قائماً في يوم من الأيام.

ولسيرتي جوربا ودلوكة- كملكيتين ينسب الرواة إليهما عديد من الإنجازات على الصعيدين السياسي والعمري- دلالات تتعلق بدور المرأة في حركة التاريخ المصري وفقاً للمنظور "الإسلامي"، وبصفة خاصة: متى تظهر المرأة، ومتى يكون البروز العام لها، وأغلب الظن أن المرأة تبرز على الصعيد العام في لحظات الأزمة والانهيار والضعف لتحفظ استمرار الحياة حتى يستعيد النظام الأصلي (الذكوري) للحكم عافيته.

ودون جوربا ودلوكة، نرى بين ثنايا الخطط سيدات أخر، فيحكى القريري عن أم ملك يدعى ميلاطس بن مرقوه بن مناقيوش بن صا حفيد نوح، ويقول أن ميلاطس هذا تولى الملك بعد أبيه وهو صبي فكانت أمه "مديرة الملك وهي حازمة مديرة فأجرت الأمور على ما كانت عليه في حياة أبيه وأحسنه وعلت في الرعية ووضعت عنهم بعض الخراج، وكانت أيامه سعيدة كلها في الخصب الكثير والسعة للناس .. ومن عجيب

دخول مواجهة حرية مباشرة، وهو الأمر المقصور على الرجال في مخيال راوي الحكاية. لذلك كان من الممكن لخيال آخر يتحرر من تلك الفكرة المهيمنة حول المرأة، أن ينتج هدفاً مختلفاً للبناء الذي أقامته دلوكة، إذ ينقل القريري (بعدهما يستفيض في وصف البرابي ومنعتها) تفسيراً عن ذي النون المصري الذي عرف بقدرته على قراءة ما حط على المعابد المصرية القديمة.

حيث يقول ذو النون، إن دلوكة كانت لهجة بالنظر في أحكام النجوم ومن المواطنين على معرفة أسرار الطبيعة، وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفاناً سيكون في الأرض ولم يقطع على ذلك الطوفان ما هو؛ أنار تأتي على الأرض فتحرق ما عليها، أم ماء يغرقها، أو سيف يبيد أهلها، فخافت - أي دلوكة- دثور العلوم وفناء أهلها فاتخذت هذه البرابي ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة وجعلت بنياتها نوعين؛ طيناً وحجارة وفرزت ما بني بالطين مما بني بالحجارة، وقالت إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما بني بالطين، وإن كان الطوفان الوارد ماء أذهب ما بنينا بالطين ويقي ما بني بالحجارة، وإن كان الطوفان سيفاً بقي كل من النوعين^١ ..

ومن الواضح أن هذا التفسير يشكل تنوعاً غير منسجم مع كافة الحكايات الأخرى التي تجعل من حكمة النساء صنواناً للسحر لا للعلم.

أنه سمع رسول الله ﷺ يقول "إن الله عز وجل سيقف علىكم مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم منكم صهراً وذمة"، وفي رواية أخرى "إن لهم ذمة ورحماً. وتساق هذه الرواية بشكل أكثر درامية، فيروي ابن وهب عن موسى بن أيوب الغافقي عن رجل من الرند أن رسول الله ﷺ مرض فأغمي عليه، فأفاق فقال استوصوا بالأدم الجعد، ثم أغمي عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك، ثم أغمي عليه الثالثة فقال مثل ذلك، فقال القوم لو سألنا رسول الله ﷺ من الأدم الجعد فأفاق فسألوه، فقال قبط مصر فإنهم أحوال وأصهار..". وترد القصة بنحو خمسة روايات، وفي تفسيرها يشار أساساً إلى السيدة هاجر زوج الخليل إبراهيم وأم إسماعيل. ويذكر آخرون مارية القبطية التي تزوجها محمد عليه الصلاة والسلام، ويتسع التفسير فيشمل بنت صاحب عين شمس التي تزوجها يوسف عليه السلام.^{١٧}

هاجر:

وتتوقف الروايات عند هاجر في أكثر من موضع. وبداية نعرف أن هاجر من قرية تقع قرب الفرما بمصر، أو هي من قرية تدعى ياق عند أم دنين، وهي قرية -حسب التوضيحات الحديثة- كانت بين النيل والقاهرة وموضعها المنطقة الممتدة من حديقة الأزبكية إلى جامع الفتح (برميس) الآن.^{١٨} وعندما يتبع ابن الحكم -في موضع آخر- سلسلة نسل نوح عند ذكر "نزول

ما صنعت هذه المرأة بركة عظيمة في صحراء الغرب، جعلت في وسطها عموداً طولاه ثلاثون ذراعاً وفي أعلاه قطعة من حجارة يفور منها الماء فلا ينقص أبداً وجعلت حول البركة أصناماً من حجارة ملونة على صور الحيوانات من الوحش والطير والبهائم فكان كل جنس يأتي إلى صورته ويألفها فيؤخذ باليد ويتفجع به".^{١٦}

كما يروي المقرئ عن الملكة "تدرورة" وكانت كاهنة ساحرة ساست الملك أحسن سياسة وديرت الملك أجود تدير وعملت طلسمات عجيبة، وعن "نونية" الكاهنة التي كانت تجلس على سرير من نار فإذا تحاكم إليها أحد وكان صادقاً شق النار من غير أن تضره، وإن كان كاذباً أخذته النار، وعن "أم مرقونس" ابنة ملك النوبة، التي سألت ابنها أن يعمل لها هيكلًا يفرد بها به فعله وصفحه بالذهب والفضة.

وما ينقله المقرئ من سير وأخبار ملكات مصر هي صور إيجابية بالجملة لسيدات حكمن بالحكمة واستخدمن المكيدة لحماية ملكهن ولتعمير البلاد.

"الرحم": منطلق شرعي لتاريخ نساء مصر

تصدر "صلة الرحم" -فكرة ومفهوماً- عملية توصيف اللقاء الذهني الأول للمسلمين بمصر، حيث يبرز الحديث النبوي الذي يرويه عبد الله بن لهيعة -وهو اسم تلقاه كثيراً في أحاديث فتح مصر- عن عمرو بن العاص قال: حدثني عمر أمير المؤمنين رضي الله عنه

ألا أضرك. ففعلت، فدعا الذي جاء بها، فقال: إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطاهما هاجر، فلما خرجت قابلها إبراهيم فسألها فقالت: خيراً، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادماً. أما الرواية الثالثة تقول أن الملك لما قام إليها، قامت تتوضأ وتصلي وقالت: "اللهم إني كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر"، فغط حتى ركض برجله. وفي الرواية الرابعة، مر الزوجان على الملك، فأعجبته سارة، فلما خافا منه دعوا الله عليه فأيس يديه ورجليه، فقال لإبراهيم مثلما قال له في الرواية الأولى، إلى أن ينتهي الحوار بوهب هاجر لسارة.

وفي الروايات الأربع موقفان، الأول - في الأولى والرابعة - يقف فيه الزوجان إزاء الملك الطامع، فيدعو إبراهيم عليه حتى يرجوه الملك، فيدعو الله له ليطلق أطرافه المتبيسة. والثاني - الروايتين الثانية والثالثة - نرى سارة وحدها في خلوة مع الملك وهي تدعو الله عليه فيجيبها الله حتى يشهد الملك بكرامتها فيأمر بإخراجها مرة ويهرب مرة أخرى.

ويعكس الموقفين كما نلاحظ موقعين لسارة، فتارة يأتي الفعل الإيجابي بالدعوة على الملك ثم إطلاقه من زوجها، وتارة تنفرد هي استقلالاً بهذا الفعل.

والرواة ينقلون القصاص الأربع بحباد ويتتهون دائماً بوهب هاجر لسارة، ولدى هذه النقطة، ينقل الرواة عن أبي هريرة قوله

القبط مصر"، يعدد الأحفاد^٩ حتى يصل إلى "طوطيس بن ماليا"، فيتوقف هنيهة ليشير إلى أن طوطيس هذا هو الذي وهب هاجر لسارة امرأة إبراهيم.

وينقل الرواة قصة هذا الملك مع سارة زوج إبراهيم حتى وهبها هاجر. ونرى ها هنا حكاية بأربع روايات تجتمع في مستهلها ثم تنفرد. فهي تجتمع في أن إبراهيم عندما أمر بالخروج عن أرض قومه والمهجرة إلى الشام، خرج ومعه سارة فقدم مصر، وكانت سارة بالغة الحسن - حسنها كحسن حواء في رواية تنتهي عند ابن عباس، ويقول المقرئ أن "يوسف عليه السلام ورث جزءاً من جمالها" وكان ملك مصر جباراً فلما سمع بحسن سارة أرادها لنفسه وأرسل إليها.

ثم تبدأ النقطة الاختلاف؛ ففي الرواية الأولى دخل إبراهيم وسارة على الملك، فلما هم الملك بسارة، أيس الله يديه ورجليه فقال لإبراهيم "هذا عمك فادع الله لي فوالله لا أسوءك فيها" فدعا الله له فأطلق يديه ورجليه، وأعطاهما الملك غنماً وبقراً، وقال ما ينبغي أن تخدم هذه نفسها، فوهب لها هاجر.

وفي الثانية دخلت سارة وحدها على الملك - و"قام إبراهيم للصلاة" - فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها: أدعي الله أن يطلق يدي فلا أضرك، ففعلت. فعاد، فقبضت يده أشد من القبضة الأولى وتكرر هذا مرتين، حتى قال: أدعي الله أن يطلق يدي، فلك الله

زوج النبي الخاتم وهي أم الولد الذكر الثاني له
(بعد القاسم).

مارية القبطية :

تعدد الروايات التي تصف إهداء المقوقس
مارية للنبي، ففي رواية أن المقوقس أرسل مع
حاطب -رسول النبي إليه- جاريتين، تزوج
واحدة ووهب الأخرى لواحد من صحابته؛
وتعدد هنا الأسماء المحتملة، وترجح بعض
الروايات كونها وهبت لحسان بن ثابت
فتكون أم عبد الرحمن بن حسان، ففي
حديث يرويه ابن الحكم يقول "حدثنا النضر
بن سلمة الشامي عن حاتم بن إسماعيل عن
أسامة بن زيد الليثي عن المنذر بن عبيد عن
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أمه
سيرين، قالت حضرت موت إبراهيم، فرأيت
رسول الله عليه وسلم كلما صحت أنا
وأختي ما ينهانا، فلما مات ثمانا عن الصباح"،
فالفتاة إذن تدعى سيرين وهي هنا كما
يقدمها ابن الحكم ضمن سلسلة الرواة لحديث
يصف وفاة إبراهيم ابن أختها مارية زوج
النبي.

وتقول الروايات أن مارية وسيرين^{٢١}
كانت كلتاهما جميلة وكانتا تشبهان بعضهما
البعض لكن الله اختار لنبيه مارية لأنها آمنت
ونطقت بالشهادة قبيل أختها بساعة.

وتمضي الروايات فتقول أن المقوقس
أهدى النبي مع مارية نسيًا لها، وكان كثيرًا ما
يدخل عليها، ورآه الرسول عندها ذات يوم
"فوقع في نفسه شيء، فرجع، فلقيه عمر بن

-عن هاجر- فتلك أمكم يا بني ماء السماء
يريد العرب.

والطريف هنا أن أبا هريرة إذ ينسب
العرب لهاجر أمًا، فهو ينسبهم أيضًا لماء
السماء، وهي سيدة. فماء السماء هي ماوية
بنت عوف بن حشم وقيل بنت ربيعة التغلبي
ملكة العراق التي من سلالتها النعمان وباقي
الملوك المناذرة.^{٢٢}

ولا تنتهي قصة هاجر عند وهبها لسارة،
بل تستمر فيقال أن سارة غضبت عليها ذات
يوم فحلقت لتغيرن منها ثلاثة أشياء (أو
لتقطعن منها عضواً في رواية أخرى)، فقال لها
إبراهيم "تخفيضها وتثقيب أذنيها" أو قال
"تخفيضها فيكون ذلك سنة للنساء، فتبرعين
بمينك". ففعلت. ويروون أن سارة "حين
رأت أنها لا تلد أحبت أن تعرض هاجر على
إبراهيم، فكانت تمنعها الغيرة". وللقصة رواية
أخرى تنتهي بالقول "ثم وهبتها لإبراهيم على
ألا يسوعها فيها فوقع عليها فولدت إسماعيل
بن إبراهيم عليهما السلام".*

هاجر إذن وكما ينقل الرواة هي أم
العرب، وهي الممثلة الأم لـ "الرحم" التي
أوجبت الوصاية بأهل مصر، فهاجر هي أم
إسماعيل الإبن الذكر الأول لإبراهيم، ومن ثم
فهي حلقة الوصل الحيّة -صلة الدم واللحم-
التي ربطت مصر بالعرب في المخيال العربي
منذ عهد إبراهيم عليه السلام.

وقد عززت هذا الدور وأكملته مارية
القبطية، فإن كانت هاجر أم العرب، فمارية

الصدائيات :

يتكامل مع الرباط الذي تخلقه الرحم، تلك الصورة التي يرسمها كلا القرآن والأثر، عن صديقي مصر- فيلى جانب سحرة فرعون- تبرز آسيا امرأة فرعون التي ضرب بها الله مثلا للذين آمنوا بقوله "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (سورة التحريم: ١١) وماشطة بنت فرعون التي آمنت بموسى فمشطها فرعون بأمشاط الحديد وهي ثابتة على إيمانها. والصلة هنا صلة إيمانية ترقى لصلة الرحم رابطة بين المرأتين المؤمنتين وسائر المؤمنات.

المرأة : بين الحكاية والواقع

بالمشور الإيجابي نفسه الذي يضيفه الإطار الديني، يعبر المقريري في خططه حدود الحكايات والمرويات، ليورد أسماء عدد من النساء اللائي نشطن في أداء الأدوار العمرانية والاجتماعية المختلفة في التاريخ الأدي لعصره، وهو ما نرصده في الخطط عند ذكر التخطيط التفصيلي لعمارة مصر من مدارس ومساجد وخانقاوات وغيرها. ففي ذكر الدور، نجد دار عبد العزيز التي ملكتها خوند فاطمة ابنة الأمير منجك ووقفتها على عتقائها^{٢٣}. ودار بنت السعيد^{٢٤} ودار خوند أردوتكين، التي تزوجها الملك الأشرف خليل بن قلاوون ومن بعده محمد بن قلاوون حتى طلقها

الخطاب، فعرف ذلك في وجهه، فسأله، فأخبره، فأخذ عمر السيف، ثم دخل على مارية وقريبها عندها، فأهوى إليه بالسيف" عندها كشف الرجل عن نفسه وكان حصياً، فلما رجع عمر إلى النبي قال له "إن جبريل أتاني فأخبرني أن الله قد برأها وقريبها، وأن في بطنها غلاماً مني، وأنه أشبه الخلق بي، وأمرني أن أسميه إبراهيم وكناي بأبي إبراهيم".

وينقل ابن الحكم رواية تقول إن الحسن بن علي كالم معاوية بن أبي سفيان في أن يضع الجزية عن جميع قرية أم إبراهيم لحرمتها ففعل. ويقول ابن الحكم أن مارية توفيت في المحرم سنة خمس عشرة ودفنت بالقيع وصلّى عليها عمر بن الخطاب.

والرواة هنا كما نرى يهتمون بمارية وأختها، ويبدو أن شطراً كبيراً من هذا الاهتمام يتولد عن أن مارية هي أم إبراهيم، وهي تكفي بذلك في معظم الروايات، فضلاً عن حرمتها لعلاقتها بالنبي، إلا أننا نجد أيضاً اهتماماً بسيرين شقيقة مارية، ولمن وهبت ومن أنجبت وهي اسم تردد في أكثر من حديث مروى عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت^{٢٢}، ووجود هذه المرأة في سلاسل الرواة هو أمر يتكرر في كثير من الأحاديث المنقولة عن النبي p، وهو يتجاوز هنا مسألة الاهتمام الخاص بخالة ابن النبي، لاسيما وأن ابن الحكم كان يدلل بالحديث على كون سيرين زوج حسان.

هذه المدرسة وجعلت فيها درس للشافعية ودرساً للحنفية".^{٣٠}

والدور العمراني يتسع هنا ليعكس دوراً تعليمياً محمداً وموجهاً من قبل صاحبة العمارة المعنية التي تمتلك تصوراً أو رؤية بعينها.

الأمر الذي يبرز بشكل أوضح في ذكر الخانقاوات والأربطة التي تقام للصوفية ولأهل الطريقة على التوالي، فنجد خانقاه أم أنوك الذي أقامته الخاتون طغاي زوجة محمد بن قلاوون وأم ولده أنوك، التي "جعلت بها صوفية وقرأء ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة وقررت لكل جارية من جواربها مرتباً يقوم بها".^{٣١}

ورباط الست كليلة زوجة الأمير سيف الدين البرلي السلاحدار.^{٣٢} ورباط البغدادية الذي بنته تذكاري باي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤هـ للشيخة الصالحة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية "فأنزلتها به ومعها النساء الخيرات.. يعرف سكانه من النساء بالخير وله دائماً شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن" ويضيف صاحب الخطط أن آخر من أدرك من نساء هذا الرباط من يصفها بسيدة نساء زمانها أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية (ت ٧١٤هـ) و"كانت فقيهة وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير عابدة واعظة حريصة على النفع والتذكير ذات إخلاص وخشية وأمر بالمعروف، انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر وكان لها قبول

الأخير فتزلت من القلعة وأقامت بهذه الدار وأقامت بها مقابر عرفت بمقابر الست وأوقفت عدة وقفيات، حتى ماتت وصلى في جنازتها الأمراء والقضاة".^{٣٥} ودار خونند طولباي الناصرية^{٣٦}، ودار الست الشقراء^{٣٧} وعمارة أم السلطان^{٣٨}.

وفي ذكر الأحكار، يتحدث المقرئ عن حكر الست حدق وحكر الست مسكة وهما "من جوارب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نشأتا في داره وصارتا قهرمانتين لبنت السلطان يقتدي برأيهما في عمل الأعراس السلطانية والمهمات الجليلة التي تعمل في الأعياد والمواسم وترتيب شؤون الحريم السلطاني وتربية أولاد السلطان"^{٣٩}.

وفي ذكر المدارس، هناك مدرسة منازل العز التي بنتها أم الخليفة العزيز بالله، والمدرسة العاشورية التي اشترتها الست عاشوراء بنت ساروح الأسدي زوجة الأمير ايازوج الاسدي ووقفتها على الحنفية.

والمدرسة القبطية التي تنسب للسيدة عصمة الدين مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل أيوب (ت ٦٧٣) وهي سيدة يقول عنها المقرئ: "قد سمعت الحديث وخرج لها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد الظاهري أحاديث ثمانية حدثت وكانت عاقلة دينية فصيحة لها أدب وصدقات كثيرة وتركت مالاً جزيلاً وأوصت ببناء مدرسة يجعل فيها فقهاء وقرأء ويشترى لها وقف يغل فبنيت

في أنحاء الكتاب، ربما لأنه ينشغل أساساً بذكر العمارة ويجعلها مفتاحاً لذكر التاريخ الحي. والعمارة ترتبط في الأغلب بذكر بنات البيوتات والأغنياء.

والاستثناءات من ذلك قليلة، منها حديثه عن الهودج الذي بناه الخليفة الأمر بأحكام الله لمحبوته البدوية في الروضة، فيحكى أن الخليفة ابتلي بعشق الجواري العرييات وصارت له عيون في البوادي فبلغه أن بالصيد جاريرة من أكمل العرب، فترى يزي بداء الأعراب وصار يجول في الأحياء إلى أن انتهى إلى حبيها، وتحيل حتى عاينها. فلما رجع إلى قصره أرسل إلى أهلها يخطبها، ولما تزوجها صعب عليها مفارقة ما اعتادت وأجبت أن تسرح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة، فسبى لها البناء المشهور في جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج. ويقول أن البدوية كانت تحب ابن عم لها يعرف بـ"ابن مياح" ولهما مراسلات شعرية في العشق ينقلها الرواة الذين ينهون القصة بمقتل ابن مياح أثناء إحدى روحاته إلى الهودج.

وإن كانت العالية البدوية قد صارت زوجة الخليفة، فإن ذكر نساء العامة من الحرافيش يجيء في مواقع متفرقة تعكس صوراً متناثرة من وضعية هؤلاء، فيروي عن واقعة إحراق الحاكم بأمر الله لمصر ويذكر أن سبب ذلك أن أهل مصر أوقفوا امرأة من الجريد مؤترة، بيدها ورقة فيها سب للخليفة بسبب منعه النساء من الخروج في الطرقات، وعندما

زائد ووقع في النفوس". ويقول المقريري إن هذا الرباط كانت "تودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن لما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات"^{٣٣}

ويتحدث المقريري في قسم خاص عن أرض الطبالاة وهي أرض واسعة من منزهات القاهرة، ويقول إنما قيل لها أرض الطبالاة لأن الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيري لما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسي وخرج من بغداد يريد الانتماء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة أمدته المستنصر بالله بالمدد حتى استولى على بغداد وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة بني العباس وأقام الدولة الفاطمية هناك، فسر المستنصر ويبدو أنه احتفل بهذا في القاهرة. فوقفت إذ ذاك "نسب" وهي طبالاة المستنصر حسب وصف صاحب الخطط، وهي امرأة مرحلة كانت تقف تحت القصر في المواسم والأعياد وتسير أيام الموكب وحولها طائفاتها وهي تضرب بالطلبل وتنشد فأنشدت وهي واقفة تحت القصر:

"يا بني العباس ردوا ملك الأمر معد ملككم ملك معار والعواري تسترد".

فأعجب هذا المستنصر وأقطعها الأرض المذكورة.^{٣٤} والطبالاة هنا هي نموذج للنساء المذكورات في الخطط دون زوجات الأمراء وبناتهم وأمهاتهم. فالجواري والقينات والمغنيات هن من نسمع عنهن ذكراً هامشياً

فضل مصر ومكانتها ثانياً، وفي تشكيل صورة عامة عن أهل مصر وأخلاقهم ثالثاً.

والرحم في معاجم اللغة هي اشتقاق من الرحمة والمرحمة وهي كذلك "بيت منبت الولد ووعاءه في البطن". وهي بمعناها الأخير تحتل مكانة رفيعة في الإطار الشرعي الإسلامي؛ مكانة ترتفع لتنسبها إلى الذات الإلهية؛ وتوجب لها الوصل بقدر ما يُوجِب ذلك للإله عز وجل. فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته". ويتأكد هذا الانتساب هنا بالاستعمال البلاغي للفظي الرحم والرحمن المتسبان إلى جذر لغوي واحد يجد معناه في الرحمة.

ويُوصَل لمكانة الرحم في قصة الخلق الأولى، ففي الحديث يقول النبي p : "إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت بلى يا رب، قال فهو لك"، وتظل الرحم موصولة بعملية الخلق فهي بيت الخلق "هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ" (آل عمران: ٦)، وهي محل حفظ وإتقاء "وَلَا يَجِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكُنَّ مَنْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ" (سورة البقرة: ٢٢٨)

وتبرز الرحم كشرط من شروط الإيمان فيقول الرسول رداً على من سأله عما يقربه

مر الحاكم بما حسبها امرأة تسأله حاجة "فأمر بأخذ الورقة منها فإذا فيها من السب ما أغضبه فأمر بها أن تؤخذ فإذا هي من جريد.. فاشتد عليه غضبه وأمر العبيد باحراق مدينة مصر"^{٣٥}.

وبخلاف إظهار حمق الحاكم كههدف لهذه الحكاية، فإنها تعكس رفضاً شعبياً عاماً لمنع خروج المرأة من العامة إلى الحد الذي مثل في ذاته سبباً لإقدام الحاكم على فعلته. ويتحدث المقريري عن زي العامة من نساء مصر لدى ذكر الأسواق، فيحكي عن لبس الطواقي بدون عمامة وكيف أنه انتشر بين رجال الدولة من الأمراء والمماليك والأجناد، وأن هذه الطواقي تنوعت ألوانها وكانت ترتفع نحو سدس ذراع، موضحاً أن الرجال يشبهون النساء في لبس ذلك "لمعتين أحدهما أنه فشأ في أهل الدولة محبة الذكران فقصد نساؤهم التشبه بالذكران ليستملن قلوب رجالهن، فافتدى بفعلهن في ذلك عامة نساء البلد وثانيها ما حدث بالناس من الفقر ونزل بهم من الفاقة فاضطر حال نساء أهل مصر إلى ترك ما أدركنا فيه النساء من لبس الذهب والفضة والجواهر"^{٣٦}.

ملاحظات ختامية :

(أ) الصلة "الأمية" للرحم :

أهم ما يستلفت الانتباه عند رصد مكانة المرأة المصرية في المرويات المذكورة، هو ذلك الدور المحوري للمرأة وللرحم بشكل خاص في الربط بين مصر والعرب أولاً، وفي بيان

التي يحتلها هذا العضو الذي تختص به المرأة، وهي مكانة من القوة إذ قررت في تجلياتها الواسعة الوصل بين أمم بكاملها.

هذا ما كان في الحالة المصرية، فمصر تربطها بالعرب صلة رحم مشهودة، تحملها عدد من السيدات بدرجات متفاوتة، فمنهن هاجر ومارية وابنة صاحب عين شمس زوج يوسف وعليه السلام، وقبلهن الفتيات المصريات اللاتي تزوج هن أحفاد نوح الذين سكنوا مصر، فالأولى أنجبت مصرام بن بنصر بن حام بن نوح، وباسم ابنتها، سُمي وطن الأم مصر، وتؤكد النسب بعد زواج مصرام من مصرية أخرى أنجبت قبليم الذي نكح امرأة ثالثة من الأرض التي سميت مصر حيث أنجبت الأخيرة أولاده الأربعة الذي سميت أقاليم مصر بأسمائهم.

والارتباط العضوي الحميم بين المرأة والرحم، هو أمر لا يمكن تجاهله حين التعرض لجانب من المكانة التي احتلها المرأة في الرؤية الإسلامية للحياة الإنسانية عامة. فالمرأة لا تحمل في أحشائها فحسب "بيت الخلق" لكنها تمثل طوال الوقت عدداً من الصلات الحية التي تربط بين البشر فرادى وجماعات وأمم، وهي صلات لها طابع الإلزام والمسئولية والاستمرار معاً، وهي أمور أقرها الشارع بوضوح (في القرآن والسنة النبوية) كما رأينا أعلاه.

من الجنة وما يعده من النار: "تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم"، وهي شرط أساس لدخول الجنة "لا يدخل الجنة قاطع رحم"، وتمتد خواصها إلى الحياة الدنيوية بجانب الأخروية، إذ يقول الرسول p "من سره أن ييسر له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه".

والوصل المستوجب هنا، يتجاوز العلاقات القائمة بالفعل إلى المبادرة بتقريب البعيد والنافر "ليس الواصل بالمكافي ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها".

وفي مقابل تلك المكانة الرفيعة للوصل، يكون إنكار قطع الأرحام: "فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ..". (محمد: ٢٢) فقطع الأرحام صنوان للإفساد في الأرض، ومن ثم، فعندما يتوجه الله عز وجل لنصيحة المؤمنين باتقاء موجبات المعاصي والإفساد، فإنه يقول: "وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ" (النساء: ١) فاتقاء قطع الأرحام هو صنو لاتقاء معصية الله. والرحم المشتقة من الرحمن موجبة للمرحمة "فَارَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا" (الكهف: ٨١) وللمسئولية الاجتماعية المشتركة: "وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ" (الأنفال: ٧٥).

لنا أن نتصور الآن المكانة الشرعية العالية

(ب) المؤرخ العربي والمرأة:

كون الرحم أساس شرعي للربط بين مصر والعرب، هو أمر تثبته في مستهلها جميع المؤلفات الإسلامية التي تؤرخ لمصر. وتكرار هذا المنطلق "الشرعي" ذاته يشير بداية إلى التزام الكتابات المعنية بالتأريخ لمصر بمعايير الشرعية والصلاحية المستقرة في تلك الفترة، وهي الانطلاق من "الشرع" ممثل في القرآن والسنة مما يضفي نوعاً من المصداقية والسلطة للأحكام التاريخية التي يتبنونها مثلما هو الحال في الأحكام الشرعية. وفي حالتنا هنا نجد أن الإسلام مهد وأسس من خلال المثال القرآني ومن خلال التوجيه والوصية النبوية لأن تصبح المرأة مصدراً للفضل وسبباً للتكريم والتقريب.

والواقع فإن الوضوح الذي تنتقل به إلينا هذه الفكرة يبين كيف أن المؤرخ المسلم "الملتزم" استطاع أن يتحرر إلى حد كبير من تحيزاته حين ينقل أخبار المرأة، وأن الهالة الدينية التي أظلت عملية التأريخ، فضلاً عن الخلفيات الدينية للمؤرخين كمفسرين أو علماء حديث أو فقه... إلخ، قد أتاحت قدراً من الالتزام عند المؤرخ لأن يتحرى الدقة في نقل أخباره عدا ما يؤثر في أحكامه من تحيزات غير واعية.

ولقد كان علم التاريخ لدى المسلمين واحداً من تجليات المنظور المعرفي الإسلامي المتميز بجمعه بين أبعاد الغيب والواقع، والمادي والمعنوي. فالعالم الذي يضطلع بمهمة محددة لها طابع دينوي، ألا وهي عملية التأريخ، لم

يكن ينفصل عن إطاره القيمي الأعلى. بما فيه من معايير للصواب والخطأ وما يحدها من أبعاد وامتدادات أخروية. هذا ما جعل السخاوي يضع شروطاً للمؤرخ حددها في "العدالة مع الضبط التام الناشئ عنه مزيد الإلتقان والتحري"^{٣٧} والتمييز بين المقبول والمردود مما يصل إليه من ذلك، وبين الرفيع والوضع وعدم العداوة الدنيوية والمحاباة المفضية للعصبية.. بحيث لا يكون جاهلاً بمراتب العلوم سيما الأصول والفروع ويفهم الألفاظ ومواقعها، خوفاً من إطلاق ألفاظ لا تليق بالترجمين فيحصل التعرض له بالتنقيص والتعزير الذي يشين"^{٣٨}.

المنطلق نفسه هو الذي جعل المقرئ يسطوح عنواناً لخططه العمرانية من الآية الكريمة "وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" (هود : ١٢٠) وهذه الآية -من ضمن آيات أحر- يراها السخاوي دليلاً على جلاله علم التاريخ وفضله وفخامته قدر صاحبه، وهي لدى ابن الأثير تحدد شرطاً من منافع علم التاريخ الدنيوية والأخروية ألا وهو الاعتبار والإقبال على التزود للآخرة.^{٣٩}

ولا يفهم من هذا أن عملية التأريخ الإسلامية ارتفعت عن كل شطط ونقيصة، إنما الحكم هنا له إطار.

لقد كان الإطار الشرعي والمعرفي حاكماً لعملية التأريخ في حدود معينة (وقصة الرحم والتأريخ لمصر ليست ببعيد هنا) هذا

حيث رفض أبناءه الأربعة الاعتراف بمذهب خلق القرآن إبان الفتنة التي جردها الخليفة العباسي الواثق بالله، ومات عبد الرحمن في السجن بعد تعذيبه. وكان عبد الرحمن من أهل الحديث عالماً بالتواريخ، وقد اعتمد أساليب رواة الحديث بذكر الرواية وإسنادها الكامل. وهو أسلوب سائر الفن القصصي المتبع في المساجد لاسيما وأن الدولة عيّنت بهذا النوع من التحدث وجعلت للحكاية في الأقطار الإسلامية وظائف رسمية يختار لها خبراء التاريخ وتجرى عليهم الدولة رواتب سخية. (انظر فتوح مصر، مقدمة المحقق ص ص ح-م)

^٤ تقي الدين أبو محمد أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسين بن تميم المقرئ، أصله من بعلبك من حارة تدعى بحارة المقارزة، ولد في القاهرة في حارة برجوان سنة ٧٦٦هـ وفيها نشأ ومات ولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة. وكانت لها صلته القوية بالظاهر برقوق وابنه الناصر فرج. انظر: الأعلام للزركلي، المجلد الأول (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٦، نوفمبر ١٩٨٤) ص ١٧٧، إلا أنه اعتزل الوظائف الرسمية فيما بعد وعكف على كتابة التاريخ. وهناك من يفسر ذلك بأنه -أي المقرئ- كان حياً فلم يستدل نفسه لطلب الوظيفة وكان من غير أهل المداينة فأبعده الحكام. (انظر: محمد كمال الدين عز الدين، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات، سلسلة تاريخ المصريين (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢) ص ١٥٧-١٧٦.

^٥ مثله في ذلك مثل الكندي وابن زولاق والسيوطي.

الإطار نفسه هو الذي مكّن من أن تحظى المرأة بنصيب وافر من عملية التأريخ الإسلامي بشكل عام، فمن منظور يرعى "العلم" ويتخذ معياراً للتفاضل كما هو للتقوى، كانت المرأة حاضرة في كتب التاريخ والسير بقدر مهارتها وقدرتها العلمية على اختلافها، فصنفت الكتب عن النساء البليغات والشاعرات والزاهدات والمحدثات، وكان لها نصيب من كتب التراجم، ومعاجم رواة الحديث وغيرها.

ودون ذلك، ويقدر ما يتراجع تأثير الإطار الشرعي إزاء عوامل الأهواء الشخصية الواعية والمتعمدة، تبرز ملامح الصورة السلبية التي رسمت للمرأة متأثرة بالمؤثرات التقليدية و"الحياة المفضية للعصية" بتعبير السخاوي.

الهوامش:

^١ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (القاهرة: مطبعة عيسى الحلبي، ١٩٦٧)

^٢ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٨)

^٣ عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصري ولد سنة ١٨٧هـ وتوفي في الفسطاط عام ٢٥٧هـ، كان أبوه عبد الله من الفقهاء المحدثين، وولي منصباً قضائياً مرموقاً في مصر، وكانت الأسرة على درجة عالية من الجاه واشتهرت بمعرفة علوم الحديث والفقهاء، إلا أنها نكبت بعد وفاة الأب بأعوام،

مصر بن بيصر بأن يشارك فيه وفي ذريته ويسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد التي نهرها أفضل أثمار الدنيا. وقد نزل أولاد مصر الأربعة مصر وسميت أقاليمها بأسمائهم. ومن أولاده صاء الذي أنجب تدارس الذي أنجب مالبق الذي أنجب خربتا الذي أنجب كلكن وملك بعده أخاه مالبا الذي أنجب طوطيس. (ابن عبد الحكم ص ص ٩-١٤)

٢٠ زينب فواز، الدر المنثور في تراجم ربات الخدور (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣١٢هـ) ص ٤٨٠.

ويقال أنها ماوية ابنة عفرز إحدى ملكات الحيرة، يروي عنها صاحب الأغاني فيقول أن جايها كل من زيد الخيل (وهو بطل من أبطال العرب وسيد من سادات طيء) ويقال أنه شهد النبي وأسلم وأسماه الرسول (زيد الخير)، وأوس بن حارثة، وحاتم الطائي، يخطبونها، فقالت ليصف كل إنسان منكم نفسه، فمدح كل منهم نفسه، فدعتهم أن يأتوا به شعراً، فقالوه، فلما انتهوا قالت: أما أنت يا زيد فقد وترت العرب، فمقام الحرة معك قليل. وأما أنت يا أوس فرجل ذو ضرائر، والدخول عليهن شديد. وأما أنت يا حاتم فرجل كريم المنتسب، قريب المنصب، وقد تزوجتك ورضيت بك فتزوجها. انظر: عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، ج ١ (القاهرة: مطبعة المعارف، ١٩٣٢)

* تجر الإشارة إلى أن الورقة تلتزم هنا بنص المرويات كما وردت في المصادر المذكورة، فالأمر يقتصر على الصورة التي تنقلها هذه المصادر، فيما لا يتسع المجال للمناقشة الموضوعية لهذه المرويات من حيث صحتها من عدمه،

٦ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، د.ت) ج ١، ص ص ١٨-١٩.

٧ سيلبي ذكره عند التعرض لقصة هاجر.

٨ المقرئ، مصدر سابق، ج ٣، ص ص ١٤٠-١٤١.

٩ المصدر السابق، ج ١، ص ١٤١.

١٠ المصدر السابق، ص ١٤١.

١١ المصدر السابق، ص ٤٩.

١٢ أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكندي الأندلسي البلسي، رحلة ابن جبير (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة ذاكرة الكتابة، ط ٢، أكتوبر ١٩٩٨) ص ٥٤، كذلك يذكرها ابن زولاق في كتابه فضائل مصر (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩) ص ٧٠.

١٣ عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩) ص ٤٠-٤١.

١٤ المقرئ، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٩.

١٥ المصدر السابق، ص ٤٠.

١٦ المصدر السابق، ص ٣٤.

١٧ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ٥، وأيضا: المقرئ، ج ١، ص ٢٥.

١٨ ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ٦، أنظر هامش المحقق بالصفحة نفسها.

١٩ ينقل ابن الحكم عن عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن عياش بن عباس القتيبي عن حنث بن عبد الله الصنعاني عن عبد الله بن عباس أن نوحا دعا لحفيده

ينسحب هذا على الحكايات التي تتعلق بسير الأنبياء مثل هذه الرواية وغيرها.

^{٢١} تقول روايات قيصر أو حنة أو حمنة بدلاً من سيرين.

^{٢٢} انظر ابن الحكم ص ٦٨، وص ٧٣.

^{٢٣} المقرئ، ج ٣، ص ٥٣.

^{٢٤} المصدر السابق، ص ٥٣.

^{٢٥} المصدر السابق، ص ٦٣.

^{٢٦} المصدر السابق، ص ٦٦.

^{٢٧} المصدر السابق، ص ٧٤.

^{٢٨} المصدر السابق، ص ٧٩.

^{٢٩} المصدر السابق، ص ١١٦.

^{٣٠} المصدر السابق، ص ٢٦٨.

^{٣١} المصدر السابق، ص ٤٢٥.

^{٣٢} المصدر السابق، ص ٤٢٨.

^{٣٣} المصدر السابق، ص ٤٢٧-٤٢٨.

^{٣٤} المصدر السابق، ص ١٢٥.

^{٣٥} المصدر السابق، ص ١٠٢.

^{٣٦} المصدر السابق، ص ١٠٤.

^{٣٧} شمس الدين السخاوي، الإعلام بالتوبيخ لمن ذم

التاريخ، تحقيق: محمد عثمان الخشت (القاهرة: مكتبة

بن سينا، د.ن) ص ٨٠.

^{٣٨} المصدر السابق، ص ٨٨.

^{٣٩} المصدر السابق، ص ٣٩.